العلاقات التجارية بين بلاد المغرب الأقصى ومملكة مالي الإسلامية

د. حنان عبد الرحمن عبد الله التجاني*

التمهـــيد

أولا: لمحة عن بلاد المغرب:

عُرفت بلاد المغرب منذ أقدم العصور بأسماء مختلفة فالأغريق مثلًا كانوا يسمون القسم الشمالي منها والذي يسكنه العنصر الأبيض باسم ليبو أو ليبيا([1]) وفي القرون الوسطى عُرفت باسم بلاد البرابرة. ([2])

فالمغرب مصطلح قُصد به الأقاليم الواقعة غرب مصر والتي تشمل شمال القارة الأفريقية، وتتضمن البلاد الليبية، تونس، الجزائر والمغرب ([3]) وتمتد من برقة شرقـــاً حتى المحيط الأطلسي غربًا و تطل على البحر المتوسط شمالًا ومن جهة الجنوب تحدها التلال الرملية الفاصلة بينها وبلاد السودان الغربي فهي بلاد كبيرة مترامية الأطراف كثيرة المدن والقرى. ([4])

---

* جامعة نيالا – كلية التربية – قسم التاريخ

[1] – البلاذري: كتاب فتوح البلدان، ليدن (1866م)، ص 237. انظر السيد علي عبد العزيز سالم: تاريخ المغرب الكبير، ج2، القاهرة، الدار القومية للطباعة والنشر، (1966م)، ص 125. انظر البكري: المغرب في ذكر بلاد المغرب وأفريقيا، ص 116.

[2] – المرجع نفسه، ص 127.

[3] – أبو هريرة عبد الله محمود: رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة أم درمان الإسلامية – كلية الآداب، (1994م)، (مظاهر الحضارة فى سلجماسة)، (1994م)، ص 15.

[4] – أبو الفداء (إسماعيل بن علي الأيوبي)؛ تقويم البلدان، باريس، دار الطباعة السلطانية، (1840م)، ص 149.

والملاحظ أن هذه البلاد اشتملت على ثلاثة أقاليم حسب ما ورد في كتابات الجغرافيين المسلمين وهي:

1- إقليم إفريقية:

وهو ما يُعرف بالمغرب الأدنى ويمتد من برقة حتى ديار مصر، وكانت حاضرته في صدر الإسلام مدينة القيروان وقد اشتملت على عدة مدن منها باجة، بونة وبنزرت.

2- المغرب الأوسط:

يقع شرق وهران وكانت حاضرته مدينة تلمسان وقد اشتمل على عدة مدن أهمها جيجل و قسطنطينة.

3- المغرب الأقصى:

يمتد من ساحل المحيط الأطلسى إلى تلمسان غربًا وشرقًا ومن سبتة إلى مراكش ثم إلى سلجماسة شمالًا وجنوبًا، كانت حاضرته أولًا فاس ثم مراكش ولها من المدن مكناس، فاس، وسُلا. ([1])

وعموم المناخ أنه حارٌ صيفًا باردٌ شتاءً. ([2]) أما السكان فهم القبائل التي سكنت بلاد المغرب.

---

[1] – أبو الفداء: سبق ذكره، ص 122. انظر البكري (عبيد الله بن عبد الله بن عبد العزيز): المغرب في ذكر بلاد المغرب، بغداد، مكتبة المثنى للطباعة والنشر (487هـ)، ص 157. انظر (ابن خلدون) كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، لبنان، دار الكتاب اللبنانى للطباعة و النشر (1959م)، ص 191. انظر سعد زغلول عبد الحميد: تاريخ المغرب العربي، الإسكندرية، منشأة معارف للنشر (1979م)، ص 70 – 73.

[2] – السيّد عبد العزيز سالم: سبق ذكره، ص 137.

القبائل التي سكنت بلاد المغرب الأقصى وعُرفوا باسم البربر. واختلف النسّابون العرب في أصل البربر، ويرى ابن خلدون أنهم من ولد كنعان بن حام بن نوح، وينقسم البربر عامة إلى طائفتين:

أ – البربر الحضر الذين يسكنون المناطق الخصبة ويشتغلون بالزراعة والصناعة.

ب البربر الرُّحّل الذين يسكنون الصحارى ويعيشون على الرعي وعلى ما يسلبونه من غاراتهم. ([1])

لقد تألف الشعب المغربي من عنصرين هما العرب والبربر، والبربر شعب عظيم عاش في شمال أفريقيا منذ القدم، فالبربر هم العنصر الأصل الذي عاشت قبائله و بطونه وعشائره في المغرب وسواحله وسهوله وهضابه و وديانه من برقة إلى المحيط الأطلسي، وهم إفريقيون حاميون. ([2])

وتنقسم الشعوب إلى قسمين البتر والبرانس وهما من أصل واحد وترجع فكرة التقسيم إلى أساس اجتماعى فغالبية قبائل البتر تعيش حياة أقرب إلى البداوة على عكس معظم البرانس فهي قبائل عاشت حياة حضارة مستقرة وهذا هو الفرق بينهما، وقد تفرقت قبائل كل قسم منهما إلى قبائل عدة وخرجت من كل قبيلة بطون عدة تداخلت بعضها ببعض واختلطت أنساب بعض القبائل بحيث تكون بترية أحيانًا وأحيانًا برانسية.([3])

---

[1] – عبد الرحمن بن خلدون: ديوان المبتدأ والخبر، ج6، ص 21، بيروت، دار الفكر للنشر، (1958م)، ص 97.

[2] – عبد الرحمن بن خلدون: كتاب العبر، ج6، بيروت، دار الفكر للنشر، (1959م)، ص 59. انظر البكري، ص 21، السيد عبد العزيز سالم، ص 19. انظر الشيخ الأمين عوض الله، ص 25.

[3] – حسين مؤنس: فتح العرب للمغرب، القاهرة، (1947م)، ص 6.

أما العنصر العربي فقد انتقل إلى هذه البلاد في صدر الإسلام انتقالًا محدودًا فلم تحدث هجرة حقيقية إلا عندما انتقل الفاطميون من المغرب إلى مصر وضعفت دعوتهم بالمغرب فدفعوا بقبائل بني هلال وسليم على الهجرة من مصر إلى المغرب، كما جاءت هجرة ثانية من الأندلس إلى المغرب كما حضرت جماعة عربية من البلاد الحجازية، وجميع هذه الفئات امتزجت مع العنصر البربري حتى تغير البربر تغييرًا عظيمًا لاختلاطهم بالعرب حتى ليستحيل تمييزهم في أغلب الأحيان فهم لم يعودوا يذكرون شيئًا عن أصلهم الحقيقى أو لغتهم أو عاداتهم فالجميع يتحدث باللغة العربية ويدين بدين واحد هو الإسلام. ([1])

وبالرغم من ذاك الامتزاج الكبير إلا أن بربر البتر تفرعوا وانقسموا إلى أربع قبائل هيسة، نفوسة، أداسة وبنو لواي أو لواته وتنقسم ضريسة إلى مكناسة وزناتة.

أما بربر البرانس فيقسمون إلى سبع قبائل هي أوربه وصنهاجة، كتامة، صمودة، عجيسة، أوزيفة و إزداجة، وقال بعض المؤرخين إنهم عشرة بإضافة لمطة، هسكورة وجزولة وتعتبر صنهاجة أكبر قبائل البربر. ([2])

ثانيًا: لمحة عن مملكة مالي

تقع مملكة مالي بين بلاد برنو شرقًا والمحيط الأطلسي غربًا وجبال البربر شمالًا.

و تعني هذه التسمية المتكلمون بلغة الماندي وهي تسمية تطلق على الماندجو والبعض يذكر أنها بربرية وكلمة مالي تعني باللغة البمبارية فرس البحر،

---

[1] – عبد الحميد العبادى: المجمل في تاريخ الأندلس، العدد الأول من سلسلة المكتبة التاريخية، القاهرة، (1958م)، ص 32.

[2] – ابن خلدون: مصدر سبق ذكره، ص 87.

وترمز التسمية إلى قوة الدولة ومناعتها فهي جديرة بهذا الاسم لما حظيت به في خلال عصورها بمكانة سامية في التاريخ، حاول المستعمر أن يستبدل هذا الاسم في عام(1904م) إلى السنغال العليا والنيجر كما أطلق عليه في عام (1920م) اسمًا جديدًا هو السودان الفرنسي، لكن التسمية القديمة ما زالت في نفوس الشعب فاستطاعت أن تستعيده ([1]) .

كانت إمبراطورية مالي مترامية الأطراف يحدها من الشرق النيجر ومن الغرب السنغال ومن الشمال الجزائر وموريتانيا ومن الجنوب الغربي غينيا ومن الجنوب الشرقي فولتا العليا ومن أقصى الجنوب ساحل العاج.([2])

و يمكن تقسيم البلاد إلى ثلاث مناطق جغرافية: المنطقة الزراعية الواسعة هي الممتدة إلى الجنوب من نهر النيجر، ومنطقة حوض النهر ثم منطقة الصحراء الكبرى في الشمال، أما من الناحية المائية فيمثل القسم الغربي من مالي جزءًا من حوض نهر السنغال، ويشكل الجزء الأوسط جزءًا من حوض نهر النيجر، وبالقرب من تمبكتو يلتقي نهر النيجر بنهر باتي الذي يروي مع روافده مساحات شاسعة، وتشغل بحيرات النيجر أجزاء واسعة من حوض النهر، وفي الجنوب الغربي توجد جبال فوتا جالون التي تمتد إلى غينيا. ([3])

وبهذا الوصف الجغرافي يمكن تحديد موقع دولة مالي في القارة الأفريقية بأنها تقع في شمال غرب أفريقيا ويحدها من الشمال الشرقي الجزائر

---

[1] – محمود السيّد: تاريخ أفريقيا القديم والحديث، الاسكندرية، مؤسسة شباب الجامعة (2006م)، ص 174. انظر جلال يحيى: تاريخ أفريقيا الحديث والمعاصر، ص 35 – 39. وانظر الشبكة العنكبوتية: منارات أفريقية.

[2] – عبد الفتاح الغنيمي: حركة المد الإسلامي فى غربي أفريقيا، القاهرة، مكتبة نهضة الشرق للنشر، ص 92.

[3] – محمود كعت: كتاب الفتاش، باريس، (1964م)، ص 34 – 37. انظر القلقشندي: صبح الأعشى، ج5، ص 279 – 282.

ومن الشرق النيجر ومن الجنوب بوركينافاسو وساحل العاج وغينيا ومن الغرب السنغال. أما المناخ بصفة عامة فمداري جاف و أن المملكة محاطة باليابس من كل الجهات

السكان في مالي:

ينحدر السكان في مالي من قبائل الماندي (الماندجو) حيث يمثلون نسبة 50% من جملة السكان، إضافة إلى قبائل المالنيك، البمبارا، السونتك، الديولا، الجيولا، السمومونو. (1)

وهناك قبائل الفولتايك التي تمثل نسبة 12% والسنغاي نحو 6%، الطوارق والعرب نحو 10% والمجموعات العرقية الأخرى نحو 5% علاوة على قبائل البولا التي تمثل نسبة 17%. ويشكل المسلمون نسبة عددية تقترب إلى حوالي 90% من مجموع عدد السكان. ([2])

وتنتشر بين السكان لغات الماندجو والمالتيك والبمبارة وتكتب هذه اللغات باللغة العربية، لكن حاول الاستعمار الفرنسي مؤخرًا محو هذه اللغات على أن تكتب باللغة الفرنسية وقد نجح في ذلك نجاحًا كبيرًا والهدف محاولة إبعاد الشعب عن لغة القرآن الكريم وإزاء ذلك أصبحت اللغة الفرنسية هي اللغة الرسمية في البلاد. ([3])

---

[1] – البكري: مصدر سبق ذكره، ص 174.

[2] – حسن إبراهيم حسن: تاريخ إنتشار الإسلام في أفريقيا. انظر إبراهيم طرخان: سبق ذكره، ص 96.

[3] – جلال يحي: مرجع سبق ذكره، ص 51.

مقدمة:

نظرًا للأثر الذي أحدثه المغرب الأقصى على بلاد السودان الغربي ولاسيما مملكة مالي الإسلامية، جاءت الدراسة لإبراز تلك الإسهامات المهمة و التي صبغت الشعبين بطابع علاقات وطيدة راسخة ذات اتجاه إسلامي عميق.

أهداف الورقة:

1- الإلمام بقدر من المعلومات الموثقة عن طابع العلاقة التجارية بين الشعبين.

2- تأكيد أن الاحتكاك التجاري هذا قد أسهم بقدر كبير في إثراء الجوانب الفكرية والثقافية بين الشعبين .

أهمية الورقة

1- إبراز أهمية المنطقتين من الناحية التجارية.

2- توضيح أهمية المسالك في توثيق وتعزيز العلاقات بين الشعبين.

3- إبراز أهمية المراكزالتجارية في رفع الكفاية الاقتصادية.

منهجية الورقة: اعتمدت الورقة على توظيف المنهج الوصفي والتحليلي.

حدود الورقة (الزمن والمكان):

الزمن ما بين القرنين الثالث عشر والسادس عشر الملاديين أما المكان المغرب الأقصى ومملكة مالي الإسلامية.

مستخلص

استهدفت الورقة إبراز جانب العلاقات التجارية بين بلاد المغرب الأقصي و مملكة مالي الإسلامية (القرن الثالث عشر حتى القرن السادس عشر) نظرًا لما لعبته تلك العلاقات من تميز لأمد بعيد، كما أسهمت إسهامًا كبيرًا في نشر الإسلام وثقافته، بجانب ما كسبته من نشاط تجاري كبير عبر المراكز التجارية ومسالكها، فارتبط شمال الصحراء بجنوبها رغم الأهوال والمخاطر.

لقد شكلت العلاقات التجارية أقوى الروابط في تاريخ الاتصال بين بلاد المغرب الأقصى والسودان الغربي، ومن أهم العوامل التي وطدت هذه العلاقات الطرق التجارية؛ لأنها من أهم وسائل الاتصال. (1)

1- المسالك التجارية و أهميتها:

هنالك عدة طرق ربطت بين شمال أفريقيا و غربها، و أشهرها على سبيل المثال لا الحصر هي:

أ – من سلجماسة إلى والاتا – تمبكتو – جنى – غاو.

ب- من تلمسان – قوات – تمبكتو.

ج- من تكرت، ورقلة إلى غاو. ويتصل هذا الطريق بالموانئ الجزائرية المهمة في الشمال.

د- من واحة الجريد في جنوب تونس إلى ورقلة، و غدامس.

هـ – من طرابلس الغرب إلى الساحل الليبى إلى غدامس، ويمر فرع منه بفزان وينتهي إلى بورنو وغاو.

و- من مصر إلى واحة سيوة –أويلة – تادمكة – غاو – ثم تمبكتو. (2)

وهناك طرق أخرى عبر الصحراء نحو السودان الغربي مثل طريق سجلماسة بسلى وتكرور و أوليل، كما هناك طريق من سجلماسة رأسًا إلى غانا،

---

[1] – ابن حوقل: صورة الأرض، بيروت مكتب الحياة،(بدون تاريخ) ص 91.

[2] – محمد مصباح الأحمر: أفريقيا والعرب، طرابلس وحدة الكتاب شعبة التثقيف والاعلام، ـــ، ص 172. وانظر الشيخ الأمين عوض الله، العلاقات بين المغرب الأقصى والسودان الغربي(1979م)، ص 125 – 127

ثم مالي وهذا الطريق يقدر بمسيرة شهرين، كما أن هناك طريق يمر من سلجماسة نحو تامدلت حتى يبلغ أودغست. ([1])

وهناك طريق وادي درعة إلى بلاد السودان الغربي، لكن لا توجد تفاصيل دقيقة حول هذا الطريق،غير أنها تبلغ مسيرة الشهرين كغيرها من الطرق الأخرى.([2])

إضافة إلى ذلك هناك طرق أخرى تفصيلها كالآتى:

الطريق الأول – الذي يربط بين تاهرت، ومدينة سلجماسة التي أصبحت مركزًا لتجمع القوافل المتوجهة إلى غرب أفريقيا، ومن سلجماسة تسير القوافل عبر الطريق المؤدي إلى تفازا. ثم أودغست ومنها نحو غانا. ([3])

يبدأ الطريق – الثاني – من تاهرت – أيضًا ويمر بواحة ورجلان، أو تادمكة وينتهي عند نهر النيجر. أما الطريق الثالث – فهو طريق طرابلس فزان، أو طرابلس جبل نفوسة غدامس، نحو تادمكة حتى منحنى النيجر، ثم طريق زويلة إلى بحيرة تشاد وإقليم كانم برنو. ([4])

هذه الطرق التجارية، هي الطرق الوحيدة التي تسلكها القوافل بين الشمال والجنوب، ووسط وغرب أفريقيا، كما أنها تمثل المعابر الرئيسة، ثم ظهرت مسالك أخرى كثيرة مزدهرة، جعلت الصحراء أداة اتصال بين شمالها وجنوبها.

---

[1] – أحمد إلياس حسين: الطرق التجارية عبر الصحراء (رسالة ماجستير غير منشورة) 1977)م، ص 77.

[2] – عبد العزيز بن عبد الله: المغرب الأقصى يحتضن التراث الأندلسى، مجلة التاريخ العربى، المغرب، العدد (13)، (1990م)، ص 236.

[3] – البكري: المغرب في ذكر بلاد أفريقيا والمغرب ديسلان الجزائر(1857م) ، ص 148. وانظر مصباح الأحمر: مرجع سابق، ص 172.

[4] – أحمد إلياس حسين، مرجع سابق، ص 40.

وأهم هذه الطرق هي:

1- الطريق الممتد من تكازة (تقازى)، إلى تمبكتو المعروف بطريق الذهب.

2- الطريق الذي يبدأ من الموانئ الجزائرية المهمة ويتجه نحو كوكو في أواسط نهر النيجر.

3- الطريق الذي يأتي من المغرب الأقصى بمحاذاة ساحل المحيط الأطلسي، إلى بلاد التكرور الواقعة في أعالي نهر النيجر، وحوض نهر السنغال.

4- الطريق الذي يبدأ من طرابلس الغرب، أو القيروان ويمر بفزان؛ لينتهي عند منطقة كانم حول بحيرة تشاد. ([1])

بجانب ذلك هناك مسالك أخرى، يُرجح أنها أولى الطرق التي سلكها العرب عبر الصحراء، وهو طريق فزان غدامس؛ لأنه أقصر طريق لعبور الصحراء، وهو طريق عقبة بن نافع الفهري، لأن المنطقة شهدت استقرارًا مبكرًا للمسلمين.([2]) وهناك طريق يخرج من سرت إلى ودان ثم زويلة، وينتهي عند كوار (كوار منطقة تقع إلى الجنوب من إقليم بحيرة تشاد)([3]). أما الطريق الذي يخرج من الجنوب الغربي، ويلتقي عند طريق تواد تكدا، فإنه الفرع الأول، من طريق غدامس وغات. أما الفرع الثاني؛ فإنه يتجه جنوبًا نحو اير، إلى المنطقة الواقعة بين بحيرة تشاد ونهر النيجر. ([4])

---

[1] – البلاذري: فتوح البلدان ليدن (1866)، ص 46.

[2] – أحمد إلياس حسين: مرجع سابق، ص 43.

[3] – اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي بيروت(1960م)، ص 192. وانظر أحمد إلياس حسين سبق ذكره، ص 45.

[4] – ابن بطوطة: تحفة النظار بيروت، ص 62 – 64.

ذكر الإدريسى: ارتباط ورجلان بأُودغست وغانا؛ وأن المسافة بين ورجلان واودغست ثلاثون مرحلة، أو يومًا، وهذا الطريق يخرج من ورجلان، إلى توات، ثم يمر عبر تفازه، أو عبر تاوديني إلى غانة وأُودغست... كما تتصل ورجلان شرقًا بأرض، الزغاوة وعبر كوار وفزان. ([1])

ب- ملامح عن الصلات التجارية:

أدت الصلات التجارية بين بلاد المغرب والسودان الغربي، منذ أمدٍ بعيد دورًا بارزًا في توسيع شبكة الاتصالات بين المنطقتين، وعُمق هذه الصلة يعود إلى ما قبل الفتح الإسلامي لبلاد المغرب، وقد ثبت ذلك من خلال النقوش الصخرية التي أظهرت وجود عربات تجرها الخيول. وهذه النقوش تتبع طريقًا يبدأ من وادي درعة مرورًا بادرار، (في موريتانيا الحالية) ، لينتهي في الدلتا الداخلية لنهر النيجر. كما يوجد طريق آخر تشير إليه النقوش الصخرية حيث يعبر الصحراء الكبرى، من جنوب تونس وخليج سرت. ويمر بجبال الأحجار في الجزائر الحالية، ليصل إلى نهر النيجر، نحو مدينة جاو التي تُعد أقدم حواضر السودان الغربي. ([2])

وبمجيء الإسلام، كان التجار المسلمون الأوائل، يتوجهون لعرض بضاعتهم في بلاد السودان، وبذلك تكونت المراكز التجارية الأولى للدول السودانية مثل: غانا، جاو، تكرور ومالي؛ مما جذب أنظار تجار بلاد المغرب إلى تلك المراكز.

---

[1] – الإدريسي: المغرب و أرض السودان مصر و الأندلس (1896م)، ص 24 – 29. وانظر أحمد إلياس حسين، مرجع سابق، ص 64.

[2]– الإسلام فى أفريقيا: أوراق المؤتمر الكتاب الحادي عشر، ليبيا، جمعية الدعوة الإسلامية العالمية (2006)، ص 374.

إنّ عمق الصلات التجارية وتبادل السلع – عبر الصحراء الكبرى والسودان الغربى – تؤكده مجمل المصادر القديمة، مثل: كتب الطبقات، والتراجم، ونتائج الكشوف الآثارية، كما أُكِّد ذلك عبر أقدم المصادر الجغرافية، التي تطرقت إلى هذا المجال، الذي يعود تاريخيًا إلى أواخر القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي)، وأول من كتب في هذا الشأن اليعقوبي، في كتابه: (فتوح البلدان)، والذي يصف طريق القوافل، من سجلماسة إلى السودان، ويقدر المسافة بخمسين يومًا، إضافة لما وجد في بلاط الفاطميين، من كتابات تشير إلى الكاتب المهلبي الذي ألّف ما بين عامي (366 – 386هـ) كتابًا في الجغرافية. وصف فيه مدينة أودغست التي تقع بين جبلين في قلب البر الجنوبي بينها وبين مدينة سجلماسة نيف وأربعون مرحلة، ورمال ومغاور على مياه معروفة، وبها أسواق كبيرة وواسعة كما بها مسلمون يقرأون القرآن الكريم، ويتفقهون، ولهم مساجد، ودور للعلوم الإسلامية. ([1])

وتؤكد المصادر القديمة، أنّ الصلة بين المنطقتين، يبدأ تاريخها منذ أوائل القرن الثاني الهجري، (الثامن الميلادي)، وقد ذكر ذلك البكري، في كتابه (المُغرب في بلاد المغرب) أن عبد الرحمن بن حبيب والي المغرب (130 – 138هـ) اهتم بطريق القوافل، لأهميته إذ أمر بحفر آبار ثلاثة، على طريق القوافل، الذي يربط بين مدينة تامدلت، (جنوب المغرب الأقصى)، ومدينة أودغست. وهذا الاهتمام، لا يعنى بداية العلاقات بل يشير إلى قدمها، وأنّ المسالك معروفة قبل أن يتولى هذا الوالي الحكم، لكنها كانت تعاني شُح المياه؛

[1] – اليعقوبي: كتاب البلدان، مصدر سابق، ص 151. انظر البكري: مصدر سابق، ص 156 – 157. وانظر محمد زينير: الشبكة العنكبوتية الموسوعة الحرة، مقال منشور فى كتاب تجارة القوافل ودورها الحضارى، معهد البحوث والدراسات العربية، بغداد، (1984م)، ص 169.

لهذا حفر عبد الرحمن بن حسين، تلك الآبار الثلاثة؛ لتسهيل تسويق منتجات المغرب في بلاد السودان، مقابل استيراد الذهب، والدقيق من تلك البلاد. ([1])

تطورت العلاقات وازدهرت، بين المنطقتين في القرن الثالث الهجري، (التاسع الميلادي)، فقد كانت القوافل المغربية، تتجمع في مدينة سجلماسة نحو ادرار، وصولًا إلى مدينة أودغست، ثم تنطلق من المدينة الأخيرة، إلى عاصمة غانا القديمة الواقعة (على بعد ستة أيام من الجنوب الشرقى)، أو تنطلق نحو المناطق الخصبة والعامرة بالسكان في وادي نهر السنغال. ([2])

استمرت الصلات التجارية، بين المغرب، وبلاد السودان الغربي، خلال القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) وكانت مزدهرة عند القرن الحادي عشر الميلادي (5 هـ) إثر قيام دولة المرابطين، التي عملت على توحيد بلاد المغرب الأقصى، ثم مدت نفوذها حتى بلاد الأندلس، فأمنت الطرق التجارية بفضل توحيدهم لقبائل الصحراء، التي سكنت في المنطقة الممتدة بين جنوب بلاد المغرب، وبلاد السودان الغربي، وأهم هذه القبائل (لمتونة، جدالة، مسوقة ولمطة). ([3])

بذلك يمكن القول بأن ظهور المرابطين كقوة جديدة في المغرب الأقصى قد ساعد على توفير الأمن التجاري الخالي من الفوضى والاضطراب؛ فأدى ذلك إلى تنشيط الأعمال التجارية عبر طريق (سجلماسة – غانا) ومن ناحية أخرى إن مرور هذا الطريق بمناجم الملح أكسبه أهمية تجارية كبيرة؛ لكون

---

[1] – أحمد إلياس حسين: مرجع سابق، ص 42.

[2] – اليعقوبي: كتاب البلدان، سبق ذكره، ص 360. انظر ابن حوقل، مصدر سابق، ص 99. وانظر البكري: مصدر سابق، ص 148 – 149.

[3] – ابن عذارى: البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق إحسان عباس، بيروت، الدار العربية للكتاب، ج2، الطبعة الثالثة، (1983م)، ص 7 – 10.

الملح أهم سلعة كانت تحمل إلى بلاد السودان؛ لندرته هناك حيث كان يستبدل بالذهب، وتشير المصادر إلى وجود منجمين للملح، في الصحراء الواقعة جنوب المغرب الأقصى؛ الأول: يبعد عن سجلماسة مسيرة عشرين يومًا، ويسمى (تانتتال)، ومنه يتجهز الملح إلى سجلماسة، وسائر البلدان السودانية، أما المنجم الثاني: فيقع على شاطئ البحر، وهو المحيط الأطلسي ويبعد مسيرة ثلاثين يومًا، من أودغست ويطلق عليه أوليل، ويحمل منه الملح، إلى بلاد السودان أيضًا. ([1])

و عند حلول القرن الثاني عشر الميلادي (6 هـ) اتسعت حركة التجارة، بين المنطقتين ونشط تبادل السلع، كما استخدمت القوافل التجارية نفس الطريق، الذي استخدم في القرن الماضي، ذلك الطريق الذي ربط بين سجلماسة وغانا. ([2]) فتفرع هذا الطريق إلى فرعين: الأول – يبدأ في الجنوب الغربي بمدينة أغمات، التي كان ينزل بها أعيان التجار؛ للتجهيز منها ثم اجتياز الصحراء إلى غانا، أما الثاني: فيبدأ من وادى درعة إلى بلاد السودان وغانا؛ و لهذا أكدّ الإدريسى في كتابه " نزهة المشتاق" أن غانا كان يقصدها التجار الأثرياء من سائر بلاد المغرب الأقصى. ([3])

وفي مطلع القرن الثالث عشر الميلادي (7هـ)، ارتبطت التجارة بين المنطقتين ارتباطًا قويًّا؛ وذلك لارتباط مدينة فاس، وسائر مدن المغرب الأقصى بالتجارة مع بلاد السودان، وقد أُكدّ ذلك بالترجمة، التي عُثر عليها في إحدى الكتابات المغربية القديمة، التي تشير إلى صاحب الترجمة وهو أبو الربيع سليمان عبد الرحمن الضهاب التلمساني، الذي استقر في مدينة فاس وبها توفي.

---

[1] – البكري: مصدر سابق، ص 171، وانظر صالح إبراهيم الشيخلى: مرجع سابق، ص 36.

[2] – الإدريسي: مصدر سابق، ص 18.

[3] – المصدر نفسه، ص 23.

والذي أعطى أحد التجار المتجهين إلى بلاد السودان عددًا من الأردية(نوع من القماش) لتسويقها في تلك البلاد، لكن التاجر توفي هناك، فوصلت أملاكه إلى مدينة فاس و هي عبارة عن صُرة تبر قد كتب عليها للفقيه أبي الربيع، كانت تلك الصُرة ثمنًا للأردية التي يبدو أنه باعها في بلاد السودان. ([1])

هكذا استمرت الصلات التجارية بين المنطقتين قوية ونشطة بالرغم من تغيير القوافل لمسالكها نسبة للدواعي السياسية، إلا أن اتجاهات القوافل ظلت ثابتة؛ لأن المراكز التجارية السودانية مثل: أودغست، غانا، تكرور، جاو، ومالي لم تفقد أهميتها. و إذا كانت الصلات التجارية قد ربطت البلدين، أي المنطقتين؛ فإنّ العلاقات الدبلوماسية قد دعمت تلك الصلات من جانب آخر.

تكونت العلاقات بين بلاد المغرب الأقصى، ومملكة مالي، ونمت ثم تطورت، وازدهرت؛ بدافع عاملين رئيسيين هما: رغبة سكان الشمال الأفريقي، وسكان جنوب الصحراء، في التواصل الاقتصادي، حيث الكسب المادي، والثقافي والاجتماعي، لهذا ارتاد التجار الصحراء، متحملين مشقة السفر والعناء، مع مراعاة اختيار الطرق الأكثر أمنًا والأنسب لقوافلهم. ([2])

أسهم هؤلاء التجار، في بناء علاقات ودية أخوية، مع رصفائهم من التجار جنوب الصحراء، والذين تربطهم علاقات تجارية متينة (تبادل السلع). ([3]) ومن جانب آخر كوّن هؤلاء التجار علاقات مع الفاطميين، في الواحات التي

---

[1] – أبو يعقوب عيسى يوسف بن يحيى (التادلي): التشوف إلى رجال التصوف، تحقيق أحمد التوفيق، منشورات كلية الآداب، جامعة الرباط، ط1، (1984م)، ص 281.

[2] – محمد مصباح الأحمر: مرجع سابق، ص 173، وانظر السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس السكندرية (1961م)، ص 201.

[3] – أبو الوليد إسماعيل : روضة النسرين فى دولة بني مرين، تحقيق عبد الوهاب منصور، الرباط، (1962م)، ص 85.

تمر بها الطرق التجارية، فنشأت مراكز لاستقبال القوافل، وكان هؤلاء التجار، في الغالب من العرب المسلمين وقد تزايدوا بعد الفتح الإسلامي لشمال أفريقيا؛ مما سهل لهم مهمة ممارسة الشعائر الدينية، باطمئنان، بل كانوا يطبقون كل ما جاء به الشرع الإسلامي، خاصة في المعاملات المالية وغيرها.

أدت مزاولة التجارة بهذا الأسلوب الحضاري الإسلامي، بجانب تطبيق أركان الإسلام بصدق من(صلاة، صوم، صدقة وحج) إلى إثارة وشد انتباه الأفريقيين الذين عرفوا للمرة الأولى، هذا الدين الجديد؛ فتأثروا بالمسلمين والمنهج الإسلامى تدريجيًا، فما لبث أن اعتنق الكثير منهم الإسلام، حيث فضلوا الدخول فيه طوعًا واختيارًا. يضاف إلى ذلك أنّ كل مسلم مكلف بنشر الدين والدعوة إليه بالحكمة والموعظة الحسنة، ثم الجهاد إذا لزم الأمر من أجل الدفاع عن الحق. ([1])

ولما كانت المسافة التي يقطعها التجار بين الشمال الأفريقي وجنوبه شاسعةً، وكذلك المدة التي يقطعها في الرحلة طويلة؛ فضّل الكثير منهم الزواج من النساء في المناطق التي يتعاملون معها تجاريًّا، ويستقرون فيها، فأدى ذلك إلى ظهور جيل جديد بدماء مختلفة؛ فكسب ذاك الجيل دينًا قويمًا، وثقافةً جديدةً، مضافة إلى ثقافته، وقد ساعد ذلك في انتشار الإسلام، ودفع عجلته إلى الأمام.([2])

لم يكن الزواج وحده، الذي أدى إلى زيادة أعداد المسلمين في السودان الغربي، بل كان للمجادلات والمناقشات الدينية بين التجار المسلمين، والسكان المحليين، أثر كبير، في كسب أعدادٍ كبيرة للدين الإسلامى وبهذا أصبحت مهمة

[1] – محمد مصباح الأحمر: مرجع سابق، ص 179.

[2] – ابن الحكم (عبد الرحمن بن عبد الله): مرجع سابق، ص 211.

التجار مزدوجة اقتصادية دينية طمعًا منهم في كسب المال والأجر من عند الله.([1])

من هنا نلاحظ أن تحولًا اجتماعيًا كبيرًا قد حدث نتيجة للمصاهرة التي تمت بين سكان الشمال الأفريقي وجنوبه؛ فقويت بذلك العلاقات التجارية التي أسفرت عن التبادل الفكري، والثقافي بين البلدين، مما سهّل مهمة الدعوة لدى التجار.

ج- آراء بعض المؤرخين والباحثين حول المسالك الصحراوية:

اهتم المؤرخون والباحثون بدراسة المسالك، التي عبر بها التجار شمال الصحراء نحو الجنوب؛ لأنه يمثل تحديًا كبيرًا لتحمل الجفاف والأهوال فهناك من فضّل طريق على آخر مركزًا على أهميته فقط بينما اهتم البعض الآخر بهذه المسالك باعتبارها وسيلة للاتصال الاقتصادي والسياسي والثقافي في آن واحد.

1- قال ابن حوقل: " وعن يسار طريق فاس إلى سجلماسة إقليم أغمات وهو رستاق عظيم فيه مدينة كثيرة الخير والتجارة إلى سجلماسة وغيرها، ومن سجلماسة إلى أغمات، نحو ثماني مراحل، ومثلها إلى فاس، ومن ورائها إلى ناحية البحر المحيط السوس الأقصى ". ([2])

هذا الوصف، يدل على اهتمام ابن حوقل، بالطريق الجنوبي الذي يمر من أغمات إلى فاس وسجلماسة. هذا الطريق كان مزدهرًا في القرن الثالث عشر الميلادي (7 هـ)، عندما تكونت دولة بني مرين، فكان لها اتصال تجاري قوي ببلاد السودان الغربي وبمملكة مالي تحديدًا.

2- جاء اهتمام البكري بطريق وداي درعة، إلى وداي تارجا، ومن ثم جبل إدارا، لكن من الملاحظ، أنّ اهتمامه انصبّ حول توفر المياه على مدى الطريق

[1] - السيد عبد العزيز سالم: مصدر سابق، ص 318.

[2] - ابن حوقل: مصدر سابق، ص 91 – 98.

وما يؤكد ذلك قوله: " أن الماءَ متوفرُ في الصحراء، ويوجد على مسيرة يومين أو ثلاثة.... أو ثمانية أيام وهي المجاية الكبرى* ". هذا يؤكد كثرة الآبار في الطريق، وأن المسافة بين البئر والأخرى ليست كبيرة، ومن جانب آخر أن السفر في الصحراء ليس كما يتصوره بعض الناس، وذلك لوفرة المياه الباطنية وقربها من السطح، إضافة إلى وجود العيون والمياه الجارية، وهذا الأمر هو الذي سهل الاتصال بين شمال الصحراء وجنوبها. ([1])

3- ولقد أكدّ ذلك ابن خلدون، في كتاباته بأن هناك آبارًا ارتوازية بالصحراء.([2])

4- أما ابن بطوطة، فقد وصف في رحلته مشكلة المياه بقوله: " و أقمنا في تفازي عشرة أيام في جهدٍ؛ لأن ماءها زعاق، وهي أكثر المناطق ذبابًا، ومنها يؤخذ الماء لعبور الصحراء التي بعدها، وهي مسيرة عشرة أيام إلا في النادر، ووجدنا نحن بها ماءً كثيرًا في غدران أبقاها المطر، ولقد وجدنا في بعض الأيام غديرًا بين تلين من حجارة، ماؤه عذب فتروينا منه وغسلنا ثيابنا ". ([3])

هذا يدل على اهتمام ابن بطوطة، بطريق تفازي تمبكتو وهو الطريق الذيى يؤدي إلى الذهب ولكن لا تتوفر فيه المياه.

5- قال السليماني: " الطريق الذي يربط بين سجلماسة ولواتة هذا يبعد عن فاس بثلاثين ميلًا... هذا الطريق لا عمارة فيه. وبه بئر ماؤها نافع للأمراض الجلدية

* المجاية: بمعنى المشقة، مختار الصحاح للامام الرازى.

[1] - البكري: مصدر سابق، ص 163 – 164.

[2] - ابن خلدون: المصدر السابق، ج7، ص 119.

[3] - ابن بطوطة: المصدر السابق، ج2، ص 192.

ومنها بلاد رملية قريبة الماء، يحفر فيها فيوجد الماء تحت الرمل على ذراع ونحوها كانت منازل لزناتة ". ([1])

جاء اهتمام السليماني، بهذا الطريق لأهميته في ذلك الوقت، الذي توحدت فيه القبائل البربرية، وتعهدت لحماية الطرق الصحراوية، وكان ذلك في منتصف القرن الثاني عشر الميلادي.

6- تحدث الكاتب الأجنبى بارث، مستعرضًا أهمية الطرق بصورة عامة مع التركيز على أهمية التجارة الخارجية، والطرق التي تربط المغرب الأقصى بالسودان الغربي، فذكر ثلاثة طرق مهمة بقوله: " كانت للتجارة الخارجية خاصة ثلاثة طرق عظيمة هي: الطريق المحازي لنهر النيجر ([*])، من الجنوب الغربي. والذي تحمل فيه التجارة المجلوبة من عدة مناطق، ([*]) وطريقان آخران، من الشمال:أحدهما من المغرب، والآخر من غدامس ".([2])

7- و كان اهتمام الكاتب الأجنبى يوفيل، بطريق الذهب كبيرًا، ويؤكده بقوله: " وكان أهم هذه الطرق، هو الطريق الممتد من تفازي إلى تمبكتو، وهو الطريق الذي اشتهر بتجارة الذهب، ولم يزل أهم الطرق من الناحية الثقافية والاقتصادية، حتى مطلع القرن التاسع عشر الميلادي ". ([3])

8- اهتم كل من الباحثين: أحمد إلياس حسين، والشيخ الأمين عوض الله، بدراسة هذه الطرق التجارية دراسة متأنية، مأخوذة من الأصول، نسبةً لما تمثله من وسيلة مهمة للتواصل الاقتصادي والسياسي، والثقافي والاجتماعي بين بلاد

---

[1] - المصدر نفسه، والصفحة.

[*] النهر المقصود هنا نهر النيجر.

[*] التجارة المجلوبة من عدة مناطق: المناطق المقصود بها مدن السودان الغربي نحو المغرب.

[2] - الشيخ الأمين عوض الله: المصدر السابق، ص 128.

[3] - المرجع نفسه، ص 129.

المغرب الأقصى، والسودان الغربي، مع التركيز على مملكة مالي الإسلامية؛ أنموذجًا لهذا التواصل.

لهذا جاء اهتمامهما بالطرق بصفة عامة، ولقد أخذا في الاعتبار التحول السياسى، الذي حدث في القرن الثالث عشر الميلادي، إلى نهاية القرن الخامس عشر الميلادي، والذي به بدأ الصراع السياسي، حيث بدأ الأعراب من البادية السوسوية يغيرون على سابلتها *، ويعترضون القوافل؛ لهذا هُجرت بعض الطرق، كما سقطت غانا، على أيدى المرابطين، فانتهت أهميتها كمركز تجاري، فاتجه المسلمون التجار نحو جهة الشمال الغربي، إلى (والاتا). كان ذلك في منتصف القرن الثاني عشر الميلادي، وفي نهاية القرن الثاني عشر الميلادي، تحطمت غانا نهائيًا؛ فتغير بذلك الميزان الاقتصادى، وانحرف نحو جهة الشرق، حيث منحنى النيجر الأوسط، فأصبحت جنى، تمبكتو وجاو، مراكز تجارة للاستيراد والتصدير. بعد سقوط غانا قامت مملكة مالي ثم صنغي. ([1])

وعندما قامت سلطنة كانم برنو، اكتسبت طرق الشرق أهميتها، كما كان انهيار صنغي وقيام مملكة الهوسا؛ سببًا في نشاط هذا الطريق في ذات الاتجاه، فأصبحت كانم هي المركز الرئيس الذي تنتهي عنده الطرق التجارية، بدلًا عن جاو وتمبكتو.([2])

وبحلول القرن السادس عشر الميلادي، وبداية القرن السابع عشر الميلادي،بدأ الزحف الأوربي، نحو الساحل الأفريقي الغربي، وبذلك تقلص النشاط التجاري ناحية الشرق فنشط الجانب الجنوبي نحو السواحل فتدهورت

---

* سابلتها (المسافرون)

[1] – ابن حوقل: مصدر سابق، ص 87، وانظر الشيخ الأمين عوض الله: المصدر السابق، ص 130. وانظر أحمد إلياس حسين: مصدر سابق، ص 80.

[2] – المرجع نفسه، ص 129.

التجارة و اختل الميزان الاقتصادي؛ خاصة في المناطق المسيطرة على وسط النيجر. وازداد الأمر سوءًا عندما سقطت صنغي على يد السعديين، فكان ذلك بداية انهيار تجارة الصحراء، بين المغرب الأقصى، والسودان الغربي، المتمثلة في مملكة مالي الإسلامية.

إزاء ذلك نشطت تجارة الساحل مع الأوربيين كبديل لطريق المغرب.([1]) بالرغم من التحول السياسي، الذي حدث في كل من المغرب الأقصى، ومملكة مالي الإسلامية إلا أن طرق القوافل والمراكز التجارية ظلت ثابتة.

د – المراكز التجارية:

1- المراكز المغربية:

أ – سجلماسة:

وهي من المراكز التجارية المهمة في بلاد المغرب، منها تسير القوافل نحو تفازة، ومن ثم إلى السودان، كما كانت المركز الرئيس لتجارة الذهب، في الشمال ويصفها ابن حوقل بقوله: "... ويقارب القيروان سجلماسة، في صحة الهواء ومجاورة البيداء، مع تجارة غير منقطعة منها إلى بلد السودان، وسائر البلدان، وأرباح متوافرة ورفاق متقاطرة، ومن فاس إلى سجلماسة ثلاث عشرة مرحلةً، وسجلماسة مدينة حسنة الموقع، جليلة الأهل فاخرة العمل... وأهلها قوم سراة مياسير... وأبنيتها كأبنية الكوفة إلى أبواب رفيعة على قصورها مشيدة عالية ".([2])

كانت سجلماسة مركزًا، لا تنقطع عنه التجارة إلى السودان، كما كانت أرباح التجارة فيها وفيرة، فظهر الثراء على أهلها، فبنوا المساكن وشيدوا

---

[1] – أحمد إلياس حسين: المرجع السابق، ص 82.

[2] – الشيخ الأمين عوض الله: مرجع سابق، ص 132. وانظر أحمد حسين إلياس: مرجع سابق، ص 82.

القصور العالية. فاستطاعت سجلماسة أن تحافظ على استقلالها، زهاء الأربعة قرون، بالرغم من ظهور المحاولات المتكررة للسيطرة عليها منذ القرن التاسع الميلادي (3هـ)، ولكن عندما توحدت المنطقة تحت دولة المرابطين، ثم الموحدين كانت سجلماسة جزءًا من أملاك الدولتين، ثم صارت أخيرًا ضمن حدود دولة بني مرين، فنجحت في المحافظة على علاقاتها التجارية القوية عبر الصحراء طوال هذا التاريخ، والعامل الأساسي الذي ساعدها على ذلك؛ اتساع نشاطها التجاري، وتعدد الطرق التي تخرج منها عبر الصحراء:(طرق تتجه نحو بلاد تكرور وأودغست، غانا، مالي، ووسط حوض النيجر).([1])

إضافة لما ذُكر، استطاعت سجلماسة أن تدير هذا النشاط التجاري الواسع بنجاح، كما وفرت للتجار كل ما يحتاجون إليه من الفنادق، المطاعم، والحمامات. فنتج عنه ثراء عريض حتى وصفت به. ([2])

ب- ورجلان:

تقع ورجلان على خطي 50 و 30 ْ شمالًا ، 17 و5 ْ شرقًا على حدود الجزائر الشرقية ([3]) تميزت ورجلان بوفرة المياه الجوفية مما أكسبها أهمية كبرى من الناحيتين الزراعية والتجارية، وبذلك أصبحت مركزًا تجاريًّا مهمًّا، وبرع أهلها في قيادة قوافل السودان؛ فاستطاعت أن تكوّن علاقات حميمة مع حواضر المغرب مثل: القيروان، وتلمسان وغيرها. ([4])

---

[1] – ابن حوقل: مصدر سابق، ص 91، وانظر الإدريسي: مصدر سابق، ص 60.

[2] – البكري: مصدر سابق، ص 150 – 151. .

[3] – ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر، لبنان دار الكتاب اللبناني (1956م)، ص415.

[4] – البلاذري: مصدر سابق، ص 49. وانظر الشيخ الأمين عوض الله: مصدر سابق، ص 129.

حافظت ورجلان على مركزها التجاري منذ القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) حتى مستهل القرن السادس عشر الميلادي، وقد ساعدها على ذلك حصونها المتينة وثراء أهلها. ([1])

ج – تفازة:

تتوسط تفازة بلاد المغرب الأقصى والسودان الغربي وهي من المراكز الأكثر أهمية لإنتاجها الملح لعدة قرون، وكانت مستقلة؛ لم تدخل في ملك أحد؛ غير أن قبيلة سوقة كانت تسيطر عليها ويقوم عبيدها بتعدين الملح بها، كما كانت مركزًا مهمًّا لتجارة الذهب؛ حيث تتم فيها مبادلته بالملح. وقد ذكر ذلك ابنُ بطوطة، في رحلته موضحًا أهميتها بقوله: " وقرية تفازة على حقارتها يتعامل فيها بالقناطير المقنطرة من التبر". وبسبب اهتمام السودانيين عادة بمعدن الملح، فقد قام أهل صنغي باحتلالها، في عهد الحاج اسكيا محمد (سلطان صنغي) وضموها لمملكتهم وبهذا لفتوا نظر المغاربة إلى أهميتها؛ غير أنه لم تتم السيطرة عليها، إلا في عهد السعديين، ولكن لم تستمر السيطرة المغربية على تفازة فعادت لأيدي السودانيين، فظلت مكان صراع بين المغاربة والسودانيين، إلى أن حُسم الأمر على يد أحمد المنصور الذهبي (حاكم مراكش) حين فرض الزكاة على المعدن باعتبار أن المعدن لبيت المال. ([2])

د – درعة:

تقع درعة شرق سجلماسة بنحو سبع مراحل، وهي مركز تجاري وقاعدة مشهود لها بالأهمية، يمتد واديها على مسافة كبيرة، جنوب المغرب الأقصى، توجد بها أنواع مختلفة من المحاصيل الزراعية، كما تتوفر بها المعادن، بجانب هذه الموارد الطبيعية كانت درعة مركزًا تجاريًّا مهمًّا؛

[1] – أحمد إلياس حسين: مرجع سابق، ص 59 – 61.

[2] – ابن بطوطة: مصدر سابق، ص 192. وانظر أمين عوض الله: مرجع سابق، ص 130.

باعتبارها أول محطة من بداية الصحراء، فهي كثيرة الأسواق والمتاجر، استقرت بها مجموعات كبييرة، وعديدة من البربر والعرب، الذين اشتغلوا بالتجارة وخدمة القوافل. ([1])

هـ – تكدّا:

عُرفت في عصر إمبراطورية مالي في القرن التاسع الهجري (الرابع عشر الميلادي)، واشتهرت بإنتاج النحاس الذي يستخرج من مناجمها، ويُحمل إلى بلاد السودان، ويُسبك في بعض الأحيان لتصك منه العملة، ومنها تسير القوافل إلى برنو، حيث تجلب الجواري والعبيد، والثياب ومنها تصدر هذه السلع إلى المغرب.([2])

وقد أشار إلى ذلك ابن بطوطة في رحلته بقوله: " ومعدن النحاس بخارج تكدّا يحفرون عليه في الأرض، ويأتون إلى البلد فيسكبونه في دورهم ويفعل ذلك عبيدهم وخدمهم... ويحملون النحاس منها إلى مدينة كوبر، في بلاد الكفار، ومنها إلى بلاد برنو، و هي على مسافة أربعين يومًا من تكدّا، ومن هذه البلاد يؤتى بالجواري الحسان والفتيات والثياب المجسدة، ويحمل الناس – أيضًا– منها إلى جوجرة " ([3])، كما يُحمل التجار النحاس نحو مالي حيث يقوم أهلها بحمله إلى مناطق الذهب لاستبداله بما يعادل ثلثي وزن النحاس ذهبًا خالصًا. ([4])

---

[1] – أحمد إلياس حسين: مرجع سابق، ص 96.

[2] – البكري: مرجع سابق، ص 174.

[3] – ابن بطوطة: مصدر سابق، ص 209. وانظر الأمين عوض الله، ص 132.

[4] – الأمين عوض الله: المصدر نفسه والصفحة.

إلا أن الرحالة بارث أشار إلى عدم وجود أي أثر للنحاس في تكدّا؛ عندما زارها في القرن التاسع عشر (13هـ). ([1])

بيد أن المصادر القديمة أكدت أن تكدا كانت مركزًا تجاريًّا مهمًّا، وقد ذُكر إنتاجها لمعدن النحاس في كل ٍ من كتابات " ابن خلدون، وابن بطوطة، والقلشقندى" الذي نقله عن العمري فيرجحون، وفي ذلك احتمال وجود هذا المعدن، بجانب وجود الملح. جاء ذكر هذا المعدن عند جغرافيِّي القرن السابع والثامن الهجريين لأول مرة. فأدى اكتشافه في " تكدا " إلى تحول القوافل التجارية نحوها، واهتمام التجار بها، وقد ساعدها موقعها على هذا التحول، فهي تقع في جنوب تادمكة، وغرب جاو فأهلها هذا الموقع للإشراف على نهاية الطريق الصحراوي، الذي ينتهي عند تادمكة، و إزاء هذا بلغ أهلها مرتبة عالية من الثراء. سواءً بالاشتغال في التعدين، أو في الملح، أو خدمة القوافل.([2]) والملاحظ أن الدُور (المنازل) في " تكدا " كانت مبنية من الحجر الأحمر؛ مما يدل على وجود النحاس.([3])

أما عن رحلة بارث وعدم وجود أي أثر لهذا المعدن، فربما لم يقف بدقة على مواقع المناجم أو ربما انحصرت زيارته في مناطق أخرى كانت خارج نطاق المعادن، إذ لا يعقل أن تندثر هذه المناجم دون أن تترك أثرًا لذلك.

و – توات:

تقع في واحة غنية، وتعتبر مركزًا تجاريًّا وزراعيًّا، فضلًا عن وفرة الذهب بأرضها حتى صارت العملة الوحيدة السائدة بها.

---

[1] – نفس المرجع، ص 134.

[2] – ابن خلدون: مصدر سابق، ص 422، وانظر ابن بطوطة، ص 212، وانظر القلقشندي، ص 117.

[3] – ابن بطوطة، مصدر سابق، 227.

كانت توات مزدهرة في عهد مملكة مالي، وذلك لما أشار إليه ابن خلدون بقوله:"... فمنها على ثلاث مراحل قبلة سجلماسة وطن توات فيه قصور متعددة، تناهز المائتين آخذة في الغرب إلى الشرق، وآخرها من جانب الشرق، يسمى ((تمنطيت)) وهو بلد مستبحر في العمران وهو ركاب التجار المترددين من المغرب إلى بلد مالي من السودان لهذا العهد ط. ([1])

ز – غدامس:

كانت غدامس من المراكز التجارية المهمة. وتتفرع منها عدة طرق تجارية، وتصل إليها القوافل القادمة من طرابلس، وجنوب تونس والجزائر وتتجمع فيها. بعض هذه القوافل تسافر غربًا عن طريق توات ومنها إلى تمبكتو وبعضها تسافر مباشرة إلى أغمات وكانم والفرع الثالث– يتجه جنوب غرب إلى مرزوق، ومنها إلى برنو.([2])

وقد زارها عدد من الرحالة، وقد دهشوا لطريقة تجارها في إجراء محاسباتهم، التي تتمشى مع الأساليب الحسابية الحديثة، فقد كانوا يحسبون تكلفة البضاعة للأقطار المتعددة وتكلفة الضرائب، ويضعون في اعتبارهم المخاطر التي تتعرض لها بضاعتهم، كما يضعون نسبةً مئوية لما ستجنيه تجارتهم، ولهم فواتير حسابية كما يقومون بعقد عقود شفاهية. ([3])

[1] – ابن خلدون: مصدر سابق، ص 117 – 118. وانظر الشيخ الأمين عوض الله، ص 132.

[2] – المصدر نفسه، ص 148.

[3] – الشيخ الأمين عوض الله: مصدر سابق، ص 134. وانظر عبد الحميد العبادي: مرجع سابق، ص 76، وانظر الموسوعة الحرة الشبكة العنكبوتية مقال عبد الرحمن زكي، تاريخ الدولة الإسلامية السودانية بأفريقية الغربية.

ح – مرزوق:

تعتبر من المراكز التجارية المهمة فقد اشتهرت كمركز تجاري لبلاد البرنو، والهوسا، غير أن صلتها بمراكز التجارة في المغرب والسودان الغربي لم تنقطع، كما اشتهرت بأنها كانت سوقًا كبيرًا لتجارة الرقيق، ومنها تصدر لمصر وتركيا... وظلت مرزوق، كما كانت منذ القدم، حتى القرن الثامن عشر الميلادي المركز الرئيس لإنعاش قوافل التجارة، القادمة من غدامس وطرابلس، إلى بلاد الهوسا وبرنو، بل المركز الرئيس لتجارة الرقيق في الصحراء. ([1])

ط – بلاد السوس الأقصى:

سُميت عدة بلاد بالمغرب الأقصى بهذا الاسم، فاشتهرت به. ووصفها صاحب كتاب "الاستبصار في عجائب الأمصار" قائلًا: ط وهي مدن كثيرة وبلاد واسعة يشقها نهر عظيم يصب في البحر المحيط يسمى وادي ماسة وعليه القرى المتصلة والعمائر الكثيرة والبساتين والجنات بأنواع الفواكه والثمار والأعناب وقصب السكر، وعلى هذا النهر قرية كبيرة جدًّا، تُعرف بنارودانت، وهي أكثر البلاد المنتجة لقصب السكر، وبها معاصر كثيرة، ومنها يُجلب السكر إلى جميع بلاد المغرب، والأندلس وأفريقية ". ([2])

ارتبطت بلاد السوس من حيث التسمية (بنارودانت) تلك القرية التي أصبحت مدينة واسعة الأرجاء، وهي تقع جنوب مراكش، بالقرب من ساحل المحيط الأطلسي شرق أغادير الحالية، وقد كانت حاضرة السوس لبعض الوقت عندما دخل عبد الواحد المراكشي المغرب، في القرن السابع الهجري (الثالث

---

[1] – أبو الفداء: مصدر سابق، ص 147.

2 – مؤلف مجهول: الاستبصار في عجائب الأمصار، تحقيق سعد زغلول عبد الحميد، ص 21. وانظر الشيخ الأمين عوض الله، ص 135. وانظر أبو الفداء: تقويم البلدان: مصدر سابق، ص 149.

عشر الميلادي) ([1]) ونسبة لموقعها المتميز كانت الدول تتصارع وتتنافس للسيطرة عليها، لكنها استطاعت أن تحافظ على مركزها التجاري بصورة كبيرة، مما جعل التجار يتحولون إليها، فظلت تستقبل قوافل التجار حتى مستهل القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي). ([2])

2- المراكز السودانية:

أ – ينِّي أو نياني:

اختلفت الآراء حول موقع (نياني)، لكنها رجحت أخيرًا، وقوعها على نهر سانكراني، أحد فروع، أو روافد نهر النيجر العليا، وقد اعتمد هؤلاء هذا الموقع لتتبعهم خط سير ابن بطوطة، في طريقه إلى مالي؛ فإنه جعل موقع نياني على نهر النيجر على الشمال من ملتقى السانكران بنهر النيجر. ([3])

ورثت نياني، مكانة غانا التجارية، فصارت أغنى مدينة في السودان الغربي لاتساع حدود إمبراطورية مالي، وضمها لكل مراكز الطرق على طرف الصحراء الجنوبي، التي تنتهي عندها مسالك المنطقتين الوسطى والغربية في الصحراء الكبرى، فصارت نياني مركزًا لتجارة السودان، وتدفقت على أسواقها السلع المختلفة الوافدة من مصر والمغرب. والذي ساعد على متانة العلاقات التجارية، تلك العلاقات الحميمة بين غانا والدول التي قامت في مصر والمغرب. ([4])

---

[1] – أبو الفداء: مصدر سابق، ص 131، وانظر أحمد إلياس حسين، ص 97.

[2] – البكري: مصدر سابق، ص 155. وانظر اليعقوبي: مصدر سابق، ص 259.

[3] – ابن خلدون: مصدر سابق، ص 419. وانظر أحمد حسين إلياس: مرجع سابق، ص 119.

[4] – إبراهيم طرخان: مملكة مالي الإسلامية القاهرة مكتبة النهضة المصرية، ص 90. وانظر أحمد إلياس: مرجع سابق، ص 120.

لهذا كانت نياني عاصمةً لمملكة مالي فقصدتها قوافل التجارة من المغرب في عهد ازدهار وتطور مملكة مالي، وقد استمدت المدينة أهميتها من خلال موقعها بالقرب من مناجم الذهب في الجنوب ومعادن الملح في الشمال، وتخطت شهرتها حدود العالم الإسلامي إلى أوربا في عصر سلطانها منسى موسى (1212 – 1227م). ([1])

فقدت نياني أهميتها بزوال مملكة مالي في مطلع القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي)؛ لكنها ظلت تتمتع بشهرتها ومكانتها التجارية وقد كان يفد إليها عدد من التجار كما أنها كانت تعج بالسكان.

ب- تمبكت (تمبكتو):

تقع إلى الشمال قليلًا من نهر النيجر على خطى 52 و 16 ْ شمالًا و 6و2 ْ غربًا داخل حدود دولة مالي الحالية. ([2])

كانت نشأتها في أواخر القرن الحادي عشر الميلادي (5 الهجري)، أنشأها الطوارق الذين كانوا يتجمعون حول موقعها بقصد التجارة، ثم ازداد إقبال التجار عليها؛ لموقعها على نهر النيجر، الذي يربط كل منطقة السافنا الواقعة بين حوض نهر السنغال، وبحيرة تشاد، وازدهرت هذه المدينة ونمت؛ نظرًا للحروبات التي شهدتها المنطقة الغربية من قبل المرابطين فصارت تمبكتو مأوى للمغاربة، بالإضافة إلى أهل مصر والطوارق من صنهاجة، وهذا يؤكد أن حضارة تنبكت من الناحيتين التجارية والثقافية، مصدرها المغرب، مما يؤكد أثر المغرب على بلاد السودان بصفة عامة، ومملكة مالي بصفة خاصة، أهمية

[1] – الشيخ الأمين عوض الله: مرجع سابق، ص 135.

[2] – أحمد إلياس حسين: مرجع سابق، ص 114.

تمبكتو التي كانت تمثل مركزًا تجاريًّا في عهد سلاطين مالي و صنغي بيد أنها ازدهرت في عهد مملكة صنغي.([1])

وجاء ازدهار تمبكتو أساسًا من تجارة المرور، ولا سيما تجارة الذهب والملح، وقد ساعدها موقعها على طرف الصحراء، على بعد بضعة أميال من النيجر، فغدت ميناءً داخليًا لأراضي السافنا، والغابات الداخلية، فهي سوقٌ تجاريٌّ لعرض منتجات السودان لتجار المغرب، وفي ذات الوقت تصدر منتجات المغرب، إلى مناطق السودان الداخلية. ([2])

أما من الناحية الثقافية، فقد وجد الحسن الوازن، عند زيارته لمدينة تمبكتو في أوائل القرن السادس عشر الميلادي (10هـ)، أن الكتب والمخطوطات كانت ترد إليها من بلاد المغرب الأقصى وتباع بأثمان مرتفعة جدًّا تفوق أسعار السلع الأخرى.([3]) لأن تمبكتو آنذاك كانت تشهد نهضة ثقافية عالية ؛ نسبة لاهتمام الملوك بذلك.

ج- جني:

كانت مركزًا تجاريًّا مهمًّا ، اشتهرت بتجارتي الملح والذهب، تأسست منذ القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) وازدهرت في عهد سلطنتي مالي وصنغي. وهي تُعد من أكبر المراكز التجارية، فيها يلتقي التجار المسلمون لتبادل السلع خاصة الملح والذهب وبعض الأقمشة القطنية، والقطن والدقيق.

---

[1] – الشيخ الأمين عوض الله: مرجع سبق ذكره، ص 137. وانظر نقولا زيادة: المغرب والسودان فى أيام المنصور الذهبي، بيروت، ص 50. وانظر الشبكة العنكبوتية الموسوعة الحرة.

[2] – طرخان إبراهيم: مرجع سابق، ص 98.

[3] – أبو الفداء: كتب صورة الأرض بيروت مكتبة الحياة(بدون تاريخ)، ص 135.

وتتمتع جنى بموقع متميز؛ لأنها تقع بمنطقة محاطة بالمياه، فأمنّها ذلك من غارات المعتدين، وجعل أهلها يعيشون في طمأنينة فتهيأت لهم بيئة طيبة للازدهار الاقتصادي فأصبحت بذلك المدينة الثالثة. بعد تمبكتو وجاو من حيث الأهمية التجارية في السودان الغربي قاطبة.([1])

د – أروان:

تبعد هذه المدينة أو الواحة عن تمبكتو، مسافة سبعة مراحل، و هي غنية بمنتجاتها الزراعية، ومحطة مهمة للقوافل القادمة من بلاد المغرب، أو المتجهة إليها ومحطة إنعاش، فمنها يتمكن التجار من التزود بالمواد الغذائية، والماء العذب، والكلأ لدوابهم كما يأخذون قسطًا من الراحة. ([2])

كان سكان أروان من الطوارق، وهم الذين قاموا بتأسيس مدينة تمبكتو حيث نما بها سوق كبير، يتم فيه تبادل منتجات السودان الغربي وبضائع المغرب الأقصى بين القوافل التي تحمل الذهب من الجنوب، والقوافل التي تأتي من غدامس وتورات من الشمال. ([3])

[1] – الشيخ الأمين عوض الله: مرجع سابق، ص 144.

[2] – نفس المرجع، ص 145.

[3] – أبو الفداء: مصدر سابق، ص 137.

قائمة المصادر والمراجع:

1- ابن بطوطة: تحفة الأنظار بيروت (1960م).

2- ابن حوقل: كتب صورة الأرض، بيروت مكتبة الحياة،(بدون تاريخ).

3- ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر ،دار الكتاب اللبناني،لبنان 1956م.

4- البكري: المغرب في ذكر بلاد أفريقيا والمغرب دي سلان الجزائر1857م

5- البلاذري: فتوح البلدان، ليدن، (1866م).

6- أحمد شلبي: موسوعة التاريخ الغسلامي ج6، القاهرة، (2000م).

7- أحمد إلياس حسين: (رسالة ماجستيرغير منشورة) الطرق التجارية عبرالصحراء حتى مستهل القرن السادس عشر الميلادي، القاهرة (1977م).

8- الإدريسي: المغرب و أرض السودان مصر والاندلس (1896م).

9- حسن أحمد محمود: الإسلام والثقافة العربية في أفريقيا، القاهرة، (1986م)

10- السعدي: تاريخ السودان، باريس (1868م).

11- السيد عبد العزيز سالم: المسلمين وآثارهم في الأندلس الإسكندرية (1961)م

12- الشيخ الأمين عوض الله: العلاقات بين المغرب الأقصى و السودان الغربي في عهد السلطنتين مالي و صنغي جدة (1979).